في الصميم

مـــادية

قال لى صديق ، وهو يحاورنى فى صدد هذه المادية الجافة التى انغمس فيها الناس انغماساً بغيضاً ، وهذه الحياة النفعية التى اندفعوا فيها اندفاعاً ممقوتاً :

ــ أنا وأنت وكل البشر يعرفون أن المال عصب مهم فى نشوء الحياة ورقى المجتمعات ولكنهم عرفوا ذلك بعد أن وضعوا النقود وسيلة من وسائل القدرة على الإصلاح والتعمير ، وسيلة فقط ، ولكن انظر إلى الناس وقد أعمى الله بصائرهم فانقلبت فى أذهانهم مفاهيم الأشياء فأصبحوا يفسرونها تفسيراً مغلوطاً يخفى عنهم الحقائق المرة ، ومن تلك الحقائق أنهم أضحوا ولاهم لهم إلا الجمع المحض فهم لايصنعون شيئاً ، فى هذا العمر القصير الذى وهبه الله لهم لكى يعملوا على إصلاح أنفسهم وسعادة مجتمعاتهم ، إلا أن يكدسوا درهما على درهم ، استولت عليهم فكرة الجمع استيلاء غريباً فهم لا يفكرون لم هذا الجمع ؟ وما هى قيمة العمر الذى يذهب فى الاكتناز وحده ؟ ولقد انقلبت فى عقولهم الأوضاع فبينما كان المفروض أن يفكروا فى الغاية تراهم الآن يفكرون فى الواسطة أى فى جمع المال وحسب . . لقد نسوا لماذا يكنزون الدرهم ..

قلت ــ هناك ظاهرة معروفة ولكنها غريبة ، وهى أن حب المال طغى على الناس فتشربت به نفوسهم وأفكارهم كما يتشرب الأسفنج بالماء فأنت لاتكاد تبحث مع أحدهم فى قضية أو أمر يكون أبعد مايكون عن البيع والشراء حتى تجده يدفعك دفعاً إلى الكلام عن التجارة وما باع وما قد يشترى أما إذا كنت ممن حباهم الله ذلاقة اللسان واستطعت أن ترغمه على البحث معك فى موضوعك الأدبى أو العلمى أو أى موضوع عام ، فستراه يناقشك فى هذه المسائل بلغة المعاملات التجارية وبأسلوب الصكوك ، وإذا احتاج فى مناقشته تلك إلى أمثلة وعبر ، فما أكثر مافى سوق الدرهم من حكم ومواعظ يلقيها عليك إلقاء... ولست بحاجة إلى أن أعيد عليك شيئاً من تلك الأمثلة فأنت تسمعها فى النهار حين تسعى فى الأسواق وتسمعها ــ وهذه ثالثة الأثافى كما يقال ــ فى الليل حين تتسامر مع الناس فى أنديتهم ومجالسهم الخاصة فهم لايتركون حديث المال حتى فى الليل حيث يستجم الجسم ويستريح البال . وأنت ياصديق من أرباب التجارة أفتستطيع أن تفعل كما يفعلون ؟ أأنت قادر على أن تعيش نهارك كله وليلك كله لاتتحدث ولا تفكر ولا تقرأ ــ إن كانوا يقرءون ــ إلا عن أسباب المال وما يتصل به ؟ . .

قال : لست بمستطيع ولن أحاول . إن هذا إسراف فى فهم الحياة وإسراف فى كبت الشعور وموت النفوس . إن هذه الحياة التى يحياها من ينطبق عليهم حديثك لاقيمة لها على الإطلاق . . إن العالم كله ينبذ اليهود ويعيبهم لأنهم أوقفوا حياتهم على المال فغلوا غلواً فاحشاً فى جمعه ، وتهالكوا عليه فماتت معنويتهم وروحيتهم ، واندثرت ضمائرهم ، وفنت أخلاقهم فاحتقرتهم الإنسانية جمعاء ، وطردتهم من حضارات العالم ومدنياته ، ولا تحسبن أن اليهود قد استطاعوا أن يحتلوا مركزاً فى المجتمع البشرى فلا يزال شيلوك هو شيلوك حقيراً منبوذاً . وما محاولة إيجاد أرض لليهود فى فلسطين العزيزة إلا لكى يتخلص العالم الغربى نهائياً من هذا العنصر القذر الذى ابتلت به الإنسانية فيبعدونه عنهم وعن حضارتهم ومدنياتهم .

قلت : وإنه لمن المدهش أن يردد بعض من فتنوا بالدينار القول المأثور اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، ثم يضرب صفحاً عن شطر القول الآخر ، فهم يمسكون الدرهم بيد من حديد ناسين أو متناسين كل ماقيل من آيات بينات وحكم ومواعظ عما يجب عليهم أداؤه فى سبيل الفقراء والمرضى والعجزة والجياع ، ولا يفكرون فى العمل الصالح فى سبيل الخير والبر والمعروف .

وهناك أيها الصديق ظاهرة أشد غرابة من تلك وهى أنك لو تعمقت فى البحث والتفكير لرأيت عجباً ، سترى أن مجتمعنا منقسم فى ناحية التفكير المادى إلى قسمين متطرفين إن جاز هذا التعبير ، فهناك فئة من الناس ترى جمع المال غاية الغايات ومنتهى الآمال وهذه الفئة انتهينا منها أما الثانية فهى أشد غلواً وأكثر سوءاً وأفتك ميكروباً ، ولندعها بالفئة الميتة ، لأنها تدعوا إلى الموت فهذه الفئة تفهم الحياة على أنها اتكال صرف ، وخمول وكسل تطل على الناس الكادحين من بروج الاعتزال والدعة ، لتعدد مثالبهم وسوآتهم ، وترمى القضاء والقدر بكل سبة وقدح

(البقية على صفحة ١٩)